«فاكتوتوم» فيلم مستوحى من رواية لشارل بوكوفسكي:

في الحياة ليست فقط صكوك اللعنة!

باريس ـ «القدس العربي»

ـ من عبد الله كرمون:

«كانت الشمس مرهقة،
سيارات تعبر نحو الشرق وأخرى تعبر نحو الغرب،
ثم خطر ببالي ثمة لو كان كل الناس يتجهون نحو نفس الوجهة
ثمة لن يحصل بعد ذلك أي خلل». ص 136.
«ـ لم تقل لي لماذا تريد أن تعمل في محل لبيع ملابس النساء؟
ـ لقد أحببت دائما النساء في ملابس نساء». ص 60.
«ـ لا يبدو أنك في صحة جيدة؟ أأنت بخير؟
ـ لقد فقدت امرأة.
ـ ستجد أخريات لتفقدهن كذلك.
ـ إلى أين يمضين؟ ص 233 *FACTOTUM*

■ قبل أن أصعد من أنفاق الميترو وأصل إلى السينما، كنت في الصفحات الأخيرة لـ «Factotum» في إعادة قراءة، لاستحضار أجواء الرواية قبل رؤية الفيلم. ما يلزم، إمعانا في بؤس بوكوفسكي، ليس هو الحب ولكن أن نصل إلى رغبات!

ثمة دائما مكان لقول فجّ ما بين كتاب وفيلم، فطالما كان أجمل ما يمكن أن يحدث لكتاب هو أن تنحني السينما وتلتقطه بشفتين من حرير ويكون بذلك بعثا رائعا وتحقيقا لأدعية وانزلاقا في جنة ما. كما أن السينما، في مقابل ذلك، متى لم تسيء إلى كتاب، وتجعل غبارا يتراكم على غلافه في دولاب، وييأس الجميع من جمال وحياة وعطاء؟ ذلك لما لم تكن للسينما أدوات كي تلاعب بتراشقها الحميمي روعة فنية مستعصية وعالية.

«فاكتوتوم» إذن بهذا النحت اللاتيني للسان، هو من يكون في وضع الذي يزاول ويتنقل بين كثير من المهن، ما عكسته حياة هاري تشيناسكي أو بوكوفسكي نفسه بطلا حقيقيا لحياته. إن استيحاء فيلم من رواية من تلك الفصيلة لتعترضه في نظري عثرات كبرى، ذلك أنها من تلك الكتابات الحرة التي لا تستدعي بالضرورة تسلسلا خاصا لأحداث ما وروابط محددة، ولا حبكة ملموسة وتقنية، وإن كانت حبكتها وأس أساسها هي حبكة الحياة نفسها بكل خساراتها وفرحها الضئيل، ما لم يكن من السهل تلافي الوقوع فيه لدى إرادة الصناعة السينمائية أومعالجة الفن الروائي من خلال الفيلم.

أمر آخر هو أن الرواية في أصلها نوع من اليوميات المرقمة من 1 إلى 87، تثير واحدة واحدة مغامرة تشيناسكي المتكررة والمزمنة للفشل المرتكب والذي يصيب أحيانا هاري مثل عاهة مستديمة لا تجد برءا.

إن أغلب روايات بوكوفسكي تعاود الإمساك بوقع الحرمان أو اللذة أو الحظ الذي يضيع دون أن يحط على قدر بطله، وتكون لها بذلك تلك السمة الأتوبيوغرافية، متحررة بذلك، مثل كتابات أخرى، من لعنة الخوف من الكتابة عن منقلبات انهيار حلم ما أو دخول مشؤوم في نفق المهانة.

لقد تصرف الفيلم إذن في الرواية واختار المقاطع التي شاء وأهمل أخرى، واختار لها خطا كرونولوجيا آخر، ما لم يكن مساس سلب بجسد النص، غير أن الفيلم لم يكتف ب«فاكتوتوم» كي يتحدث عن تلك الوضعية العسيرة لدى تشيناسكي بل رصع أجزاءه بمقاطع دالة من روايات وأشعار أخرى لبوكوفسكي، مع أن الفيلم لم يستنفد بعد كل الغنى الذي يلتف عليه كتاب فاكتوتوم.

إن قدر تشيناسكي آت لامحالة من لعنة أبوية ليست دون تأثير سيء على حياته، كنوع من الدعاء عليه وأصيب ثمة ولم يقدر قط مذ ذاك أن يقوم من سقطته وانطلى عليه ذلك الوعيد وتحقق ورعاه بعد ذلك نفسه لما أفضت العناية له به، وسلمت له أمر أن يصير ويظل ما صار وبقي. لما عاد إلى البيت العائلي، نظر إليه والده نظرة حادة لمت من كل شراسة الدنيا لهبها وسأله هل يعمل؟ وهل بحث عن عمل؟ ليخلص من النفي الذي صار من أجوبته بأنه لم يستطع أن يتصور بأنه صحيح أن المخلوق البائس والفاشل الذي يرى أمامه هو حقيقة من صلبه!

إن شخصية تشيناسكي قد جمعت في ذاتها كل العادات السيئة التي يمكن أن يتميز بها كل بوهيمي قاطع طرق اللياقة والبروتوكول الاجتماعيين. فهو الذي ولى ظهره للانضباط المدرسي وعانق الكأس وتعاطى لعلاقات شتى مع كل أنواع النساء. مع أنه مع ذلك ولذلك ربما ظل يحاول أن يرتقي أبعد من سلمة الشعر الأولى لدى كفافي، وإن كان كثيرا ما يستهين بالقراءة ويحاول من حين لآخر أن يوحي لنا بأنه لم يقرأ منذ مدة وإن كان يحمل معه من خلال سفره له بعض كتب هنري ميللر ذلك الشقيق الآخر الذي نحت هو أيضا تماثيله من صخر مقارب.

ماط تيلون أيضا كمتقمص، في التمثيل، لشخص بوكوفسكي استطاع إلى حد ما أن يقرب المشاهد من رعونته وصلافته، مع أنه في كثير من اللحظات يخون رخاوة وترنح السكران والمهمل والمستخف بوقائع الاستواء على الأرض لدى بوكوفسكي، فيبدو ماط تيلون بنوع من شرارة القوة التي لا تخالطها أية لوثة من كل التي صُنع منها الرجل.

الفيلم في تلاحق فقرات الكتاب فيه يكاد لا يصدق عليه أنه مأخوذ من الرواية لأنه كما أسلفت فهو نوع من اللحظات التي يبدو فيها تشيناسكي أو بوكوفسكي متشردا أو متعاركا أو سكيرا أو كاتبا أو مطرودا أو كل هذه الفضائل جميعها في آن واحد!

في القاعة التي مثّل فيها تشيناسكي من أجل عمل كسائق تاكسي مع غيره من المترشحين لتلك المهنة، والتي رُفض فيها طلبه لأسباب أخفاها لدى تقدمه بملفه تتعلق بسوابقه العدلية المتعلقة بالسكر، بدأ مونولوجا جميلا إذ خطر له وهو يرى كل أولئك الناس حواليه، بأن «ثمة في أمريكا دائما من يطلب عملا ولحسن الحظ بالقدر الذي تتاح فيه دائما فرص إيجاد عمل ما، غير أنه فكر: لو طلبوا منا أن نصطدم ونتعارك ويعمل من ينتصر!

قال إنه يريد أن يصير كاتبا ما دام كل الناس كتّابا. لا يعتقد الجميع أن بإمكانهم أن يصيروا أطباء أسنان أو ميكانيكيين، غير أنهم يعتقدون جميعا أنه يُمكنهم أن يصيروا كتّابا.

فمعدل خمسة عشر رجلا من الخمسين الحاضرين في هذه الصالة قد يعتقدون أنهم كتّاب. فكل الناس يستعملون ويكتبون الكلمات لذلك فباستطاعة كل الناس أن يصيروا كتّابا. ولحسن الحظ ليسوا كتّابا ولا حتى سائقي تاكسي، وهناك رجال، وما أكثرهم، ليسوا للأسف شيئا يذكر»!

تتداخل بهذا الشكل إذن كثير من اللمعات الهامة لدى بوكوفسكي ويمنح للمشاهد أو للقارئ أن يحترز من أبخس الكليشيهات وينصت لكلام مخالف وينسى قليلا أن بوكوفسكي وإن كان مرتبطا بالفضيحة، أية فضيحة؟ فإن ما يشكل إسهامه الأدبي قد يكون أكثر هو ما كتب لما ابتلع أكبر الخوابي استدارة ومارس حريته في اليومي وإن كانت كثيرا ما تصطدم بإمساك العصر والسلطة عن مشاغل التسري عن ذئاب الرغبات التي تعوي في أسفل عوالمه وأعلى عُلا ذهنه.

«فاكتوتوم» إذن هو تسجيل كامل لتحولات حياة تشيناسكي ودروبها الملتوية، يغادر عملا ويصل إلى موعده مع آخر، يفرغ زجاجة كحول ويهبط سلالم كي يشتري أخرى يضاجع نساء ويفترق معهن ليتصل بمحض صدفة مع «جين» التي ربطتهما علاقة منحدرة من أعاصير مشتركة، كما أنه يكتب من خلال كل ذلك في تلك الغرف والأزقة وعلى طول الرحيل الدائم كمعنى للبعد الفلسفي للفظة «فاكتوتوم»، ولا تنشر الصحف والمجلات التي يراسلها نتاجه، وإن تمكن من ذلك بعد مدة ونحن نعرف أن كتبه لم تكن تتداول بسهولة في أمريكا إلا بعد طول إطباق صمت عليها ومنع.

يحتاج تشيناسكي كل مرة إلى نوع من العزلة كي ترشح روحه الأسيانة بقلاقلها، ويصب ذلك الغضب المشروع على سكرتيرة «التايمز» التي كان يرغب في أن يعمل فيها صحافيا عوض عامل نظافة ويكتب فيها الافتتاحيات ويفضح فيها الفساد الإداري كما يقول غير أنه لم يقض فيها سوى نهار لأنه شاء أن يشرب كأسا أو يضاجع زميلة أو يأخذه النعاس أو غير ذلك من كل استهتاره بضوابط الشغل وغيرها كل مرة. لما عاد لليوم الثاني ليتقاضى أجرة المياومة التي لم تكن سوى إكراهية فإن السكرتيرة لم تف بوعدها وخاطبته قائلة بأن شيكه لم يكن بعد معدا وأبدت تأسفها، ما قابله تشيناسكي بلهجة بالغة الحدة بقوله لها أنها لا تعرف الأسف وبأنه إن كان ثمة في الدنيا من يستشعر الأسف حقيقة فإنه هو!

حديث تشيناسكي مع رؤساء عمله غني دائما بأفكار تهكمية عالية عن العلاقة غير السوية التي شاءت طبيعة الصراع الذي يمثلان أطرافه أن تكونه، علاقة استغلال وعداوة. فمجادلته مع مسؤول محل بيع قطع الغيار لم تخل من نفحة فلسفية خاصة لما خاطبه بأنه منح له كل شيء، أي كل ما يملك، بمعنى وقته مقابل أجر زهيد، فأكبر ما يملكه الرجل صراحة هو وقته. منحه إذن كل وقته كي ينعم الآخر بكل الرغد الحاصل له بذلك وهو في بيته الفخم بكل ما يحتويه من رفاه. وأكد له أنه إن كان مرة أخرى ثمة من يخسر شيئا في هذا الأمر فإنه أيضا هو وليس سواه. ثم خاطبه في الأخير قبل أن يطرد بأنهم، أي أرباب العمل، يحبون كثيرا أن يغبنوا المأجورين حقوقهم وصرخ بأنهم يستوون في ذلك جميعا، أليس كذلك؟

لقد احتشم الفيلم كثيرا في عرض موضوعة الجنس في الفيلم فلم يظهر فيه سوى قليل وإن في أوضاع لا تتيح تملي كل العري ولا كل تقاسيم العملية، كما أنه استغل تقنية التعليق والصوت الآتي من الضمير المستتر الذي يقدر بهاري تشيناسكي أو بوكوفسكي مع موسيقى جميلة أو حتى بعض أغنيات، إذ كما اعترفت له بعض جاراته في خان سكنه مرة بأنها استرقت السمع إلى الموسيقى الجيدة التي يديرها في آلته، فهو مولع بالموسيقى الكلاسيكية ما يذكره كثيرا في جل كتاباته.

ليس من السهل أن ينجز فيلم جميل عن كتاب بسيط وجميل غير أن فيلم فاكتوتوم يستطيع، إن لم تكن له سوى تلك الحسنة، أن يعاود بنا زيارة مناطق بوكوفسكي ويجعلنا نرتمي على ركبتينا في مرحاض قذر ونتقيأ على بعض مناطق اختلال في الضغط على الفكر الحر والعودة بنا إلى الخلف كثيرا وراء ماوراء شيوخ المعتزلة.

شيء آخر، أخشى أن يكون قد حدث لفيلم بنت هامير هذا مع فاكتوتوم عكس مع حدث لرواية كلينبوم مع فيلم «حلقة الشعراء المفقودين»، إذ صنع منها على عكس الأول فيلما رائعا!

هامش أول: «قال وليام سارويان، لقد ضيعت حياتي بأن تزوجت نفس المرأة مرتين!» بوكوفسكي في: septuagenarian stew.

هامش ثان: «ينقص دائما شيء، ثمة كأس أو نسمة أو عبارة، وكلما ازداد تمتعنا بالحياة وإلا ازددنا خلقا لها، وازداد إيلامها»! فرناندو بيسوا.

لقطة من فيلم «فاكتوتوم»

ملصق الفيلم

تداعيات

تعقيم الإنترنت في سورية

علي سفر*

■ سررت كما سر غيري من السوريين حين ظهرت اعلانات مزود الخدمة «آية» في سورية خاصة حين علمت أن هذا المزود يقدم لمشتركي الإنترنت خدمة معقولة عبر فتحه للعديد من الخدمات التي كانت محجوبة عبر المخدمين الأولين، مؤسسة الاتصالات (حكومي) والجمعية المعلوماتية (شبه حكومي)، وأيضاً عبر عدم حجبه المواقع المحجوبة على غيره. وبعد فترة وجيزة من عمل هذا المخدم قامت الجمعية المعلوماتية بالافراج عن مجموعة من الخدمات التي حجبتها سابقاً عن مشتركيها، ولكن مزود الخدمة «آية» صدم مشتركيه ذات صباح برسالة توضح أنه قد قام بحجب العديد من المواقع بناءً على طلب من مؤسسة الاتصالات ..!

و هكذا عدنا كمشتركي إنترنت في سورية الى الحظيرة بعد أن انفرجت أمورنا لعدة أيام فكرنا خلالها أننا قد نتحول الى مشتركين طبيعيين في شبكة الإنترنت كما في أي مكان من العالم المتحضر...

وقبل أيام نشرت الصحف السورية خبراً عن ظهور مزود جديد هو الشركة الهندسية للحواسيب وقيل إن هذا المزود سيحاول ان يضيف شيئاً من التنوع للعوالم التي قام السابقون عليها باضفائها على مشهد الإنترنت في سورية.. ولكننا فوجئنا كما غيرنا باعلانات المزود الجديد في شوارع دمشق وقد عنونت بعبارة تفيد بأن هذا المزود يقدم خدمة دخول آمنة للعائلة الى شبكة الإنترنت.

و بفضول شديد بحثنا عن موقع المزود الجديد على الشبكة ودخلنا اليه دخولاً «آمناً» عبر مزود الجمعية المعلوماتية، فماذا وجدنا؟

لقد فاجأنا المزود الجديد بأنه لا يكتفي بالاعلان عن نفسه عبر ما يشترك به مع المزودين السابقين فقط بل انه يفتتح المزاد على مصراعيه في تقديم خدمات سوبر غرائبية على الساحة السورية فعلى صفحة الموقع http:// www.cec.sy/safe-filter.htm

يقول أصحابه:

«انسجاماً مع دور الشركة... في تأمين مستلزمات نقل المعرفة لأوسع الشرائح واقامة مجتمع المعلومات، وايماناً منها بضرورة تقديم مداخل آمنة الى شبكة الإنترنت تتيح المفيد منها علماً ومعرفة وتقي من الفاسد والمؤذي مادياً وأخلاقياً تقدم الشركة... حزمتها من الخدمات الجديدة كمزود خدمة انترنت. باستعمالك لمزود خدمة الانترنت من الشركة... للوصول الى الشبكة العالمية يمكنك الاطمئنان لعدم تعرضك أنت أو موظفيك أو أ فراد أسرتك للمحتويات الفاسدة والمؤذية على الانترنت».

وهنا يمكن لأي متابع للساحة الإنترنتية السورية أن يتوقف عند هذه الخدمة الجديدة وأقصد الدخول الآمن عبر السؤال عما يخشاه المواطن السوري من شبكة الإنترنت حتى تقوم الشركة الجديدة بتأمين المواطن السوري مما يخاف من أخطار الشبكة.

هل هو شيء لم ينتبه اليه مزودو الخدمة السابقون والذين قاموا جميعاً بحجب سلسلة طويلة من المواقع الاعلامية والسياسية والدينية استجابة للاملاءات الأمنية؟

أم أنه شيء يخص الشركة الجديدة لا تريد أن تعلن عنه صراحة وتريد أن تجعله سراً متفقاً عليه بينها وبين المواطن الذي تعلن له عن خدماتها الجديدة؟

نستمر مع الشركة في اعلانها ونقرأ:

لقد خصصت الشركة كادراً مؤهلاً للتصدي لهذه المهمة المعقدة والضرورية. وزيادة في الأمان فالشركة فتحت أقنية التعاون مع كل مشتركيها وخبراء المعلوماتية والانترنت في سورية والوطن العربي والعالم للافادة من خبراتهم والتعاون معاً من أجل تقديم خدمة مضافة مميزة وفعالة. مزود خدمة الانترنت في الشركة يقدم:

ا ـ تصفح صحي وآمن على الشبكة العالمية خالٍ من المحتويات الفاسدة والمؤذية...

يقوم مزود خدمة الانترنت في الشركة الهندسية للحواسب ببذل كل الجهود لتصفية عمليات التصفح من المحتويات المؤذية. ان احتمال الوصول بطريق الخطأ الى مواقع فاسدة ومؤذية يقارب الـ 0% ولكنه ممكن الحدوث. ترجو الشركة الهندسية من مشتركيها ابلاغها عن المواقع التي قد تخترق عمليات التصفية لكي يتم التعامل الفوري معها من قبل كادرنا..

اذن نحن أمام عبقرية جديدة تريد للمواطن السوري ألا يخشى على بيته وعائلته من الإنترنت التي تحتوي كما الحياة على كل شيء حتى المفسدات والمؤذيات...

ولكي يكون المواطن مطمئناً عليه أن يذهب الى مزوده الجديد الذي بذل كل الجهود كي ينام المواطن قرير العين ...

ونحن بدورنا سنصفق لأصحاب الشركة الجدية وذلك لأنها نهجت سبيلاً جديداً حقاً في الواقع التقني السوري.. هذا الواقع الذي لم يكتف بما بذله مخدمو الإنترنت السابقون من محاولة لتعقيم فكر المواطن السوري من المواقع السياسية الاعلامية الهدامة والدينية المغوية بل انهم يوغلون في التقصي والبحث عما يعكر صفو الأسرة حين تقرر الدخول الى الإنترنت حيث لا نخشى على شيء سوى أن ينبثق للأسرة ومن نسبة الصفر المعلن عنها أعلاه موقع مفسد لها ينتبه اليه جهابذة الشركة.

وفي قفزة خيالية رائعة نقع على الخبطة العجيبة التي تقدمها الشركة اذ نقرأ وفي جهة من جهات الموقع دعوة من مزود الخدمة الى المواطنين الى تقديم طلباتهم في حجب المواقع التي لا تسرهم حيث يطلب من المواطن ذكر اسمه وبريده الإلكتروني واسم الموقع المراد حجبه وسبب الحجب ...!!!

http://www.cec.sy/whichToBlockForm.php

اذن مزود الخدمة الجديد يدعو المواطن السوري للعمل كمخبر من نوع خاص على شبكة الإنترنت حيث سيقوم هذا المواطن باخبار عباقرة الشركة بالمواقع التي لا تروقه ولا يحبها كي يقوم المزود بحجبها..

أليست فكرة عبقرية تدعونا للتفكر بالنشاط الأهلي على شبكة الإنترنت؟ ممّ يخاف المواطن السوري على شبكة الإنترنت؟

هل يخاف من مواقع البورنو ـ الجنس مثلاً؟

أم أنه يخاف المواقع الدينية التطرفية التي حجبتها عنه مؤسسة الاتصالات والمعلوماتية ولحقتها «آية» وستلحقهما فيها هذه الشركة الجديدة ـ رغماً عنها بالتأكيد ـ أم أنه يخاف من مواقع المعارضة التي غدت متاحة في أغلبها أمام المتصفحين؟

هل يعتقد هؤلاء الداخلون على الصنعة من بابها الواسع أنهم سيشكلون اضافة على المشهد الإنترنتي السوري عبر تشريع المنع والحجب وجعله عملاً تطوعياً بعد ان كان عملاً تقوم به المؤسسات الحكومية وشبه الحكومية؟ أم أنهم يكملون المشهد السوري من دون قصد حين يجعلون أنفسهم في موقع المزود الذي يقوم بالحجب تطوعاً وبدون ايعازات من قبل السلطة الأعلى؟

ما الذي سيفعله هؤلاء العباقرة لو قام أحد المتصفحين السوريين المستائين من سياسة الحكومة الاقتصادية بالطلب منهم أن يحجبوا موقع رئاسة مجلس الوزراء مثلاً؟ وماذا لو قمت بالطلب منهم أن يحجبوا موقع الجمعية المعلوماتية ذاته؟ ولنفترض أن شخصاً ما اشترك في هذا المزود وطلب منهم أن يمنعوا موقعاً ثقافياً سورياً يظن أنه موقع هدام ومعاد للاسلام مثلاً؟

هل سيُنفذ عباقرة الشركة هذه الطلبات السابقة ام أن معيار المنع لديهم يختص بنوعية محددة من المواقع كمواقع البورنو مثلاً.. والتي لا أظن أننا نتفركش فيها هكذا فجأة عند تصفحنا للإنترنت.

ربما تكون طريقة اعلان مزود الخدمة الجدي عن نفسه بريئة ولا تستحق كل هذا التأويل والتمحيص الذي قمنا به ولكنها بالتأكيد طريقة تبالغ في الولاء لغاياتها وطريقة تحول «بوابة المعرفة» الى بوابة منهوبة لا تفضي سوى الى الدروب الباهتة من عالم شاسع وفسيح يستحق أن نرتاده بعد أن نرمي بما اعتدناه خلفنا.. ونمضي.

* كاتب من سورية

«شظايا مكان» لعزمي بشارة:

تساؤل عن القيمة الادبية للرواية وراء الحدود!

رنا أبو حنا . حلو*

■ طالما ترحمت على والدي وأنا في خضم قراءة سطور أدبية أو تعليقات اجتماعية أو سياسية! كيف لا وأنا مدينة له ما حييت بهذا الهوس الآخذ بالازدياد، حتى ألقاه في دنيا الآخرة، فأجلس الى جانبه وأهمس في أذنيه: ـ نعم قرأت!

وان علمني والدي ان أقرأ، فقد علمتني القراءة ان أكون انتقائية وموضوعية، لأتصدى لعدو الوقت الذي يهاجمني بشدة ولجيش من الذين يسيئون للكتابة والقراءة والفكر على السواء.

وان ترحمت مرارا على والدي وأنا منهمكة في قراءة رواية شظايا مكان «حب في منطقة الظل» لعزمي بشارة، الصادرة مؤخرا عن منشورات «ميتافورا» حيفا 2005 ، فقد ترحمت على والدة الكاتب (لا لأكشف عن اسم الأمهات كما فعلنا حين كنا صغارا)، بل لأشير الى علاقة الدم التي جمعتها بوالدي! كيف لا؟ وقد جلسا الساعات الأسبوعية الطوال لسنوات عديدة، حتى يخضعا لعملية تكرير الدم «الديالیزا»، والتي أوضح الكاتب عواقبها والأعراض المرافقة لها والتي لا يشهدها المريض وحده بل زوجته وسائر أهل بيته.

ولا أدري ما هي الدوافع التي حاصرتني بشدة الى قراءة هذه الرواية دون غيرها في الأيام الأولى لهذا العام!؟ ولعل الدافع الأول يعود الى مصالحة ذاتية مع أمي أمد الله في عمرها، والتي تبرعت كعادتها الكريمة في تقديم شظايا رواية «الحاجز» لصديقتها، ولم أكن قد انتهيت من قراءتها بعد. فقد أوهمتني ان صديقتها قارئة نهمة وستقرأ الرواية في يومين، وأن كنت متأكدة من مصائر الكتب التي تخرج من بيتنا ولا تعود!

أما الدافع الثاني فهو الدافع الشخصي الأقوى، ويعود الى المصالحة الذاتية وضرورة التسامح، حين لا يفسد اختلاف الرأي للودّ قضية، «ويكون التسامح موقف استعلائي، فهو يشمل متسامحا ومتسامحا معه»، (صفحة 101) ناهيك عن الاشارات والقيم الانسانية البارزة في الرواية والتي تحثنا على التسامح والترفع عن النزاعات بين الأخوة والاعتقاد الأفضل بوجود عاطفة العقل.

والثالث يعود الى ربع قرن خلا، حين كنا تلاميذ نجول في أروقة المدرسة المعمدانية في الناصرة مع فارق الجيل، تلك المدرسة التي لم يعلمنا معلموها مبادئ اللغات وحب الأدب والرياضيات والتاريخ والجغرافية فحسب، بل أخذنا تعليمهم الى محطات انسانية ومبدئية هامة في طريق تخطي الحواجز، وان أبعدونا قليلا عن وخز السياسية.

وبعد، فما أروع ان تكون دوافع القراءة فيما تكون غاية لمراجعات ومآخذ ذاتية قد لا تعني أحدا من قريب أو بعيد!

أما كيف استطاع الكاتب ان يصحبني في رحلة تقارب الأربعمائة صفحة فهذا هو السؤال.

وأخذت أراهن على القيمة الأدبية الكامنة في الصفحات الأولى التي تذيلت برائحة عبقة لعناصر روائية قوية، سرعان ما ضعفت وتلاشت مع فائض التحليل وبالغ التدقيق لترسب في منطقة الظل، أو تعلو فوق خيالات الظلال في منطقة قد تسمى «ما فوق الرواية»، حيث يمكن لكل طرح ان يلبس على حدة حلة «رواية».

والظل فكرة ابداعية رئيسية! يكبر بقوة في «بطن عمر» حتى يظهر الداء فنهتدي الى التشخيص والدواء في فصلي «ظل الظل»، «وكيف فارق عمر ظله»؟

واذ لا أستطيع ان أنسب فكرة الظل بحذافيرها لعزمي بشارة، بعد ان جسدها «درويش» في احدى روائعه الأخيرة:

«قلت: أخدعه وأخرج من غروب مدينتي
فرأيته يمشي أمامي
في غروب مدينة أخرى...
فقلت: اذن، سأتبعه لأخدعه
سأتبع ببّغاء الشكل سخرية
أقلد ما يقلدني
لكي يقع الشبيه على الشبيه
فلا أراه، ولا يراني.»

وأعيش عمق الفكرة في نص وقراءتين، وأبقى لأحبس ظلي تحت عتمة لحاف فأوصد الباب وأشعل المصباح فلا أراه، وأكون وحدي حيث أنا في برد كانون. ويصحبني ايقاع النص وضجيج السرد الى ضلال نوم، ليتراءى الواقع في حلم، فأصحو على ظل الحقيقة، أراقب مزهوة معجبة تفاوت القدرات بين الشاعر والكاتب وأبارك لهما تسوية الخلاف الذي انفض بينهما في معرض الكتاب في بيروت.

ينقلني العمل الى حل وسط وموقف رمادي وأفكار متشعبة حول تاريخ الرواية، لم يتركني قط حتى قراءة الغلاف الأخير؟ وأكتشف ظلال الخشب وألوانه وأنواعه وصفاته التي تشكل أداة تصويرية معبرة في وصف أمور أخرى وحتى في وصف البشر، وأفهم صورة الغلاف لأشد على يدي الفنان «شريف واكد» في دقة تصميمه للغلاف! وان كنت لأقف مرارا على حواجز خشبية ركيكة، لا أفهم عندها أجوبة لبهجة الاصابة بالدهشة أمام تساؤلات «دنيا» البلهاء وردود فعلها السخيفة التي أبعدت العمل عن المنحنى الروائي، وباتت تشكل عبئا ثقيلا في عدم التسليم جدلا بأي شيء «ايه حبيبي، كل هوا حبيبي، بمزح معك حبيبي». علما أن «دنيا» هي الفتاة المثقفة النبيهة التي تعيش في لندن، والدور التقني الذي تؤديه يتعلق بالرؤية الأخلاقية ويعطي اشارة واضحة لمفهوم رواية ما قبل الحداثة التي فيها هي تفصل الانسان عن محيطه، تسقط المثل الأعلى الأخلاقي على خارج الوسط المحيط.

أما «عمر» فقد أنهى دراسة الحاسوب ويعمل بترجمة الوثائق التي ترده كيفما اتفق وفي النجارة ويولي كامل الاهتمام بحبيبته «دنيا» عبر التشات والنت وبالتالي يبذل قصارى جهده ووقته لمعالجة هشاشته الخاصة في نص ذكي ومسرف في الغرابة، ويتناول بالتحليل الوافي شتى المفاهيم والظواهر والنماذج التي تستند الى واقعنا الاجتماعي والسياسي والمفارقات التي توصلنا محليا الى منفيين، المنفى الفعلي والآخر المجازي، وكأني به يدشن «قدرة خارقة» في حداثية الرواية، مما ينقلنا بدوره الى مرحلة القطيعة الجديدة التي تعيد اكتشاف المسافة الشاسعة بين الانسان وقضاياه المحيطة، القضايا التي لا حصر لها ولا عدد.

وان ننسى فلا ننسَ أزمة الهوية، حيث يتداخل دوما موضوع الهوية بظل الأزمة أو ظل الهوية بشتى الظلال وحتى الضلال!

«منذ زمن فقدت القرية أزمة الهوية ذاتها، وباتت تسترخي في هويتها المحلية الخاصة المرتاحة على هامش ذاتها، بين الراحلين والقادمين».

وبقيت لأتساءل: ماذا يعني هذا الواقع للمغتربين والغريبين والمختلفين، وبالتالي للقارئ الآخر البعيد خارج حدود بلاد الحواجز؟

والجواب كما أتلمسه يفيد ان الروزنامة خارج حدود دولة الحاجز تسير حسب مقاييس مختلفة وتعيش خارج النظام المعتاد! الروزنامة هناك أقل فضولا واستقرارا بالقياس الى الحياة في بلاد الحواجز، وبالتالي فاني أتردد في القيمة البعيدة اليوم لهذا العمل فيما وراء الحدود، في الوقت الذي تقتصر قراءته محليا على نخبة من المهتمين والمثقفين ليس الا!

واذ تحول نضال الكاتب قبل انتهاء الشوط من الحلبة السياسية الى الساحة الأدبية !

فلنا ان نغض الطرف عن بعض الأهداف الذاتية الموجهة لأعضاء الكنيست العرب والجمعيات الأهلية وتعتيم ملف الاعلام الدولي واغلاق شاشات الفضائيات، لنصبح على وطن.

* كاتبة من فلسطين